المحاضرة الأولى: النظريات الكلاسيكية من الرؤية البيولوجية الى الاقتراب الوظيفي

أولا: تقديم:

تعددت الاتجاهات النظرية المفسرة للجريمة بتعدد العوامل المسببة لهما. فكان أول ظهور لتلك الاجتهادات في إنجلترا، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وراجت بعد ذلك في أوروبا وأمريكا. أطلق عليها اسم "المدرسة الكلاسيكية" أو "المدرسة التقليدية".

حاول أنصار النظريات البيولوجية في مجال علم الإجرام شرح السلوكيات المخالفة لتوقعات المجتمع من خلال فحص الخصائص الفردية، ويتم تصنيف هذه النظريات ضمن نموذج يسمى الوضعية) المعروف أيضًا باسم الحتمية)، والذي يؤكد أنّ السلوكيات بما في ذلك السلوكيات المخالفة للقانون، والتي يتم تحديدها من خلال عوامل خارجة عن السيطرة الفردية إلى حد كبير، كما تتناقض النظريات الوضعية مع النظريات الكلاسيكية التي تجادل بأنّ الناس يختارون عمومًا سلوكياتهم في العمليات العقلانية لاتخاذ القرار المنطقي، ومع النظريات النقدية التي تنتقد صنع القوانين والتقسيم الطبقي الاجتماعي والتوزيع غير المتكافئ للسلطة والثروة.

ويمكن تصنيف النظريات البيولوجية إلى ثلاثة أنواع وهي:

- تلك التي تحاول التمييز بين الأفراد على أساس بعض السمات أو الخصائص الجسدية الخارجية (أي تلك التي ولدت بها).
- أولئك الذين يحاولون تتبع مصدر الاختلافات في الخصائص الجينية أو الوراثة.
- أولئك الذين يحاولون التمييز بين الأفراد على أساس الاختلافات الهيكلية أو الوظيفية أو الكيميائية في الدماغ أو الجسم.

من الصعب تقديم تسلسل زمني دقيق لأهم ما في النظريات البيولوجية، وذلك جاء لأنّ العديد من التطورات والحركات الهامة حدثت في وقت واحد في أجزاء مختلفة من العالم، فعلى سبيل المثال وعلى الرغم من أنّ النظريات البيولوجية تعتبر وضعية فإنّ مفهوم الوضعية لم يتطور إلّا بعد تطور بعض المنظورات البيولوجية المبكرة، بالإضافة إلى ذلك تتم مناقشة النظريات البيولوجية للسلوك التي تتطوي على بعض جوانب التطور أو علم الوراثة أو الوراثة من حيث تلك التطورات العلمية على الرغم من أنّ نظريات السمات الفيزيائية لا تزال شائعة.

الوضعية والتأسيس للدراسات في مجال الجريمة:

لقد برز الاتجاه الوضعي كمحاولة لاستخدام المنهج العلمي لفي دراسة الجريمة، وذلك من خلال الدراسة الكمية للسلوك الاجرامي، تلك الدراسات التي اعتمدت في أساسها على الاحصائيات الجنائية على أساس من التوزيع الجغرافي لمعدلات الجريمة، وذلك في محاولة لتقديم قراءة في العوامل الاجتماعية التي تختلف من منطقة لاخرى في ارتباطها باسباب الجريمة وانواعها ووقت حدوثها.

لقد كان الهدف الأساسي للوضعية في دراسة الجريمة هو الكشف عن القوانين التي تحكم السلوك الإنساني، حيث ظهر مبدأ الحتمية في تفسيراتها العلمية لمختلف أنماط السلوك، فالنظرية الجغرافية ترى ان للعوامل البيئية أثرا مباشر أو غير مباشر على ظهور السلوك الاجرامي، والنظرية البيولوجية تؤمن بالحتمية للعوامل الوراثية في انتاج السلوك الإجرامي، ونفس الحال بالنسبة للنظريات النفسية والاجتماعية التي شكلت امتدادا فكريا للمدرسة الوضعية.

ثالثا. نظرية الانومي:

برزت هذه النظرية مع اسهامات اميل دوركايم حيث استخدم مفهوم الانومي للدلالة على السلوك المنحرف، اذ يرى ان الطموح الزائد وتعليق الآمال الكبيرة تبعا لظروف معينة يفشل الفرد في تحقيقها وهو ما يؤدي بالضرورة الى انهيار منظومة القيم والمعايير داخل المجتمع.¹

1. دوركايم: استخدم هذا المفهوم للإشارة الى حالة الصراع بين الرغبة في اشباع الاحتياجات الأساسية للفرد وبين الوسائل المتاحة لإشباع تلك الاحتياجات، لقد ناقش مفهوم تقسيم العمل في المجتمع الصناعي وكيف انتقل المجتمع التقليدي الى مجتمع حديث من خلال تحلل البنى التقليدية واستبدالها ببنى حديثة تتعلق بسيادة القانون ودور المؤسسات فيه، فالانوميا هي نتيجة سيئة لتقسيم العمل حيث أثرت على درجات التكامل بين مكونات التنظيم الاجتماعي.

2. روبرت ميرتون: لقد قام ميرتون بتجديد لمفهوم الانومي حيث قدم تفسيرات للسلوك الانحرافي في ضوء التفسيرات الوظيفية، فالسلوك المنحرف حسب ناتج عن التفاوت بين الافراد أو عدم القدرة على تحقيق الأهداف بالطرق المشروعة. فالتناقض بين القيم الاجتماعية والاهداف الثقافية لا يعد سببا كافيا في حد ذاته، اذا لم يحدث في مجتمع تسوده أيديولوجيا تدعو الى المساواة وإتاحة الفرص لتحقيقها بطريقة متساوية.

¹ محمود الجوهري: علم اجتماع الجريمة والانحراف، دار الميسرة، الأردن، 2010، ص 37

ويرى كثير من النقاد اليوم أنّ نظرية روبرت ميرتون تشكّل الحلقة الأكثر نضجاً وعمقاً في النظرية البنائية الوظيفية على وجه الإطلاق، ولا غرو في القول: إنّ الوظيفية بلغت أوج نضجها وتألقها على يد ميرتون الذي حمل رايتها المنتكسة، ونهض بها خفاقة في عالم السوسيولوجيا الوظيفية المعاصرة.

وضع ميرتون نموذجاً وظيفياً للتكيف الاجتماعي يتكوّن من خمس وضعيات تفاعلية تتمّ وفقاً للكيفية التي يحقق فيها الفرد توازناً مشروعاً أو غير مشروع بين الأهداف الثقافية التي يسعى إلى تحقيقها والوسائل التي يعتمد عليها في تحقيق هذه أهدافه وطموحاته. وقد تمّ إعداد هذا النموذج النمطيّ لتحليل العلاقة السوسيولوجية بين الأهداف الثقافية المتاحة والوسائل الممكنة. وقد أعدّ هذا النموذج التحليلي على منوال الأنماط المثالية التي نجدها في سوسيولوجيا ماكس فيبر ولا سيما النمط البيروقراطي. وباختصار يعتمد النموذج الخماسي للتكيف الاجتماعي في دراسة تكيف الأفراد في المجتمع، ورصد الكيفيات التي يختارون فيها مواقفهم ووسائلهم لتحقيق أهدافهم وطموحاتهم المنشودة. ويحدّد لنا خمس وضعيات لهذه العلاقة بين الأفراد والوسائل والغايات تتمثّل في: الامتثال، والابتكار، والطقوسية، والانسحاب، والتمرد، وسنقوم بوصف هذه الحالات الخمسة على النحو الآتي²:

أ - النمط الامتثالي: (Conformity)

فإنّ المجتمع الذي يضع أهدافاً ثقافية، ويطلب الأفراد بالسعي إلى تحقيقها بوسائل مشروعة صعبة المنال لا يتمكن منها إلا بعض الفئات الاجتماعية، فإنّ الأفراد على الأغلب سيعتمدون وسائل غير مشروعة لتحقيق أهدافهم وطموحاتهم، ويستفاد من ذلك أنّ أسباب الامتثال تعاكس أسباب الشذوذ والانحراف في المجتمع. وباختصار يحدث هذا النمط من التكيف، حين يتقبّل الأفراد الأهداف الثقافية، ويتقبّلون في الوقت نفسه الأساليب التي يحددها النظام الاجتماعي بوصفها أساليب مشروعة لتحقيق هذه الأهداف.

ب- النمط الابتداعي أو الابتكاري (Innovation):

النمط الابتداعي أو الابتكاري أحد أشكال التكيف السلبية الانحرافية في المجتمع. فالأفراد وفقاً لهذا النموذج يأخذون بالأهداف الثقافية، ويرفضون الأساليب المشروعة في تحقيقها. وتتنطبق هذه الوضعية على الأفراد الذين توصل في وجوههم الأسباب المشروعة كنتيجة لظروفهم الاجتماعية الصعبة إذ قد لا يجدون في بيئتهم ما يمكنهم من النجاح المدرسي، والانصراف إلى التعليم، وغير ذلك من الظروف الاجتماعية المواتية، وبالنتيجة فإنهم لا يستطيعون الوفاء بالوسائل المشروعة لتحقيق أهدافهم، فيلجؤون إلى تبني وسائل وأساليب غير مشروعة اجتماعياً لتحقيق النجاح، وهم في ذلك يبتدعون هذه الوسائل والأساليب مثل تجارة المخدرات الغشّ البغاء العنف السرقة، وغالباً ما يسود هذا النوع في بين الفئات الاجتماعية الفقيرة والمهينة.

² جورج رينزر وجيفري ستينبنسكي، النظريات الحديثة في علم الاجتماع، دققه وراجعه علمياً ذيب بن محمد الدوسري، عمر عبد الجبار أحمد، خالد بن عمر الرديعان، الرياض: مكتبة جرير، ط 1، 2018. ص 234.

ج- النمط الطقوسي: (Ritualism)

يرفض أصحاب هذا النمط الأهداف الثقافية الاجتماعية (الثروة، المال، الغنى، النجاح المادي، الثروة الخ) ولكنهم يراعون ويوافقون على الوسائل الاجتماعية المعتمدة في تحقيقها. أو أنهم على الأقل يلتزمون بالوسائل المعتمدة تحت تأثير الضغط الاجتماعي. ويسود هذا النوع من التكيف في أوساط الطبقة الوسطى الدنيا، مثل صغار الموظفين البيروقراطيين والعاملين في المؤسسات الحكومية، ويفسر ميرتون "وجود هذا النمط من التكيف بأنه يرجع إلى أسلوب التنشئة الاجتماعية الصارم السائد في هذه الطبقة، وإلى الفرص المحددة للتقدم المتاحة لأعضاء هذه الطبقة.

د- النمط الانسحابي (Retreatism):

يمكننا وصف النموذج الانسحابي بأنه نموج الدراويش والمتصوفين والزهاد الذين يشعرون بغربتهم الثقافية والاجتماعية، فيحاولون الانسحاب إلى ذواتهم للعيش في دوامات أفكارهم الخاصة والتأمل في تطلعاتهم المفارقة لهذه التي تفرض نفسها في المجتمع. ويعد هذا النمط أقل الأنماط شيوعاً وحضوراً في المجتمعات الرأسمالية. ويمكن القول: إن الفرد الذي يأخذ بهذا النمط الانسحابي يعيش في المجتمع بطريقة لا يشعر فيها بالانتماء إليه، ويمكن تصنيفهم تحت شعار المثل الذي يقول: "كن مع الناس ولا تكن منهم" أي: جاورهم في ديارهم ولا تجارهم في تطلعاتهم وأعمالهم. والأفراد الانسحابيون يعيشون في المجتمع ولا يأخذون بقيمه الثقافية ويرفضون في الوقت نفسه الوسائل التي تتيحها الثقافة السائدة فيه.³

وهذا يعني أن الأفراد الذين يصنفون في هذه الفئة يتخلون كلياً عن الأهداف والوسائل التي تحددها الثقافة السائدة في المجتمع. ويقع في هذه الفئة الأفراد الذين أصيبوا بالجنون، وهؤلاء الذين يعيشون في حالة تشرد والمدمنين على الخمور المخدرات، كما يمكن أن يشمل هذا التصنيف المتصوفة والزهاد والنسك. ويرى ميرتون أن هؤلاء الانسحابيين يحاولون الهروب من المجتمع والعيش خارج مطلقاته الثقافية ودلالاته الاجتماعية والثقافية، وهم يتكروا لمستقبلهم، ولا يأبهون بمسؤولياتهم تجاه أسرهم وأطفالهم وأقربائهم، وهم باختصار يرفضون القيم السائدة في ثقافة المجتمع كما يرفضون في الوقت ذاته الوسائل المشروعة لتحقيقها.⁴

هـ نمط التمرد (Rebellion):

³ Donald W. Harper, Structural-Functionalism: Grand Theory or Methodology?

University of Leicester , December 2011. Url -<http://bitly.ws/IQ9>

⁴ - جورج ريتزر وجيفري ستينسكي، النظريات الحديثة في علم الاجتماع، المرجع السابق، ص 234.

ويعد نمط التمرد من أخطر أشكال التكيف الاستلابي في المجتمع، فالتمرد كما يشي عنوانه يعني رفض كلي للقيم والعادات والتقاليد والقيم الثقافية والوسائل المشروعة التي يتبناها المجتمع في تكيّفه الداخلي. ولا يكتفي أتباع هذا النموذج برفض الأهداف والوسائل معا بل يعملون على استبدالها بقيم ووسائل أخرى. وإذا كان النهج الانسحابي يتميز برفض الأهداف والأساليب معا بصورة سلبية تؤدي إلى الهروب من المجتمع، فإن النمط التمردية يأخذ بالرفض الإيجابي للأهداف والوسائل، ويمتثل ذلك في التوجه إلى إيجاد قيم جديدة وإبداع وسائل جديدة واستبدالها بالقديم⁵.

ويرى ميرتون، في هذا السياق، أنّ سلوك التمرد يحدث في أثناء الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، وفي مواجهة الانسداد الثقافي، والانغلاق الاقتصادي، والضغط الثقافي الشديد، ومشاعر الحرمان والإحباط، وتزايد حدة الإكراه الاجتماعي في المجتمع. وهذه الوضعيات الحرجة تؤدي إلى ولادة إيديولوجيات جديدة تعمل على تعبئة التصورات والمشاعر والإرادات في التأسيس لرؤية اجتماعية ثقافية جديدة تعد بإخراج المجتمع من أزماته واختناقاته المزمنة .

أسئلة للتمعن والتفكير:

1. في رأيك، هل يمكن الاعتماد على النظريات الكلاسيكية في تفسير الظاهرة الاجرامية اليوم؟
2. اذا كان هناك مجرم بالفطرة في المجتمع الذي تعيش فيه، هل يمكن ان نعامله كأبي مجرم؟ لماذا مع التعليل؟
3. ناقش ماذا أضاف روبرت ميرتون لمفهوم الانوميا؟
4. قم باسقاط أنماط التكيف التي قدمها ميرتون على نماذج من الظواهر الاجرامية في المجتمع الجزائري؟

⁵ سمير نعيم أحمد، النظرية في علم الاجتماع: دراسة نقدية، ط 5، القاهرة، دار المعارف، 1985. ص 215.